الفصل الثاني عشر

العلاقة بين القبائل العربية والمماليك

في مصر والسودان

سنة ٦٥١هـ - ٩٢٢هـ / ١٢٥٢ -١٥١٧م

كانت أكبر ضربة تلقاها العرب في مصر هي عندما أمر المعتصم بوقف أعطياتهم واستبدالهم في العسكر بالجنود الأتراك . ووجد العرب أنفسهم مجردين من أي شئ يمكن أن يأتي لهم بدخل .وكانت أرض مصر عندما فتحها عمرو بن العاص خاضعة لشروط الأمان الذي أعطاه عمرو نيابة عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ض) لأهل مصر. وهذه الشروط التي تقيد بها المسلمون هي كما ذكرها المقريزي في قوله : " قال ابن الحكم : كتب عقبة بن عامر إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما يسأله أرضا يسترفق فيها عند قرية عقبة . فكتب له معاوية بألف ذراع في ألف ذراع . فقال له عقبة .: " ليس لنا ذلك ، إن في عهدهم شروطا ستة هي : - [1]

(١) ألا يؤخذ من أرضهم شئ

(٢) ولا من نسائهم .

(٣) ولا من أولادهم .

(٤) ولا يزاد عليهم (في الجزية) .

(٥) ولا يكلفوا ما لا طاقة لهم به .

---

[1] المقريزي : ج أول ص ٢٠٨ - طبع بيروت .

(٦) ويدفع عنهم (أي إذا جاء عدو يغزوهم فعلى المسلمين أن يدافعوا عنهم .)

وقد تمسك الخلفاء المتعاقبون بهذه الشروط ، ولم يمنح أحد من العرب أراضي في مصر ، ولم تنزع أرض من أقباط مصر ، ولذلك فقد أصبح موقف العرب بعد وقف الأعطيات ضعيفا للغاية ، ولم يجدوا لهم بابا للرزق . وكانت هذه بالنسبة لهم كارثة يصعب احتمالها .

وازداد موقف العرب سوءا حين حكم الأيوبيون مصر ، وأكثروا من المماليك الذين جلبوهم من النواحي التركية ، وحين أخذوا يقسمون مصر إلى إقطاعيات لأمرائهم من المماليك ، وبذلك أججوا الضغائن العربية على هؤلاء . [٢] ثم ما لبثت الأمور أن ازدادت سوءا حين استولى المماليك على حكم مصر ، وحين أصبحوا أصحاب البلاد، بينما كان العرب هم الذين فتحوا مصر ، ونشروا فيها الإسلام رغم أنهم كانوا يعيشون خارج المدن والقرى طيلة القرن الهجري الأول ، ولم يختلطوا بالمصريين إلا بعد ذلك .

ومما لا ريب فيه أن العرب كانوا أحسن من أعطى أمانا وعهدا للدول التي تغلبوا عليها ، وقد احتفظوا بتعهداتهم هذه رغم مرور عشرات السنين على قطع الوعد ، ولا نجدهم يتخلون عن تعهدهم رغم مرور السنين الطويلة ، ورغم تغير الأحوال . وكانوا بحق مثلا أعلى لا يوجد له نظير في الأمم الأخرى حتى ولا في العصور الأخيرة التي يتحدث فيها الناس عن حقوق الإنسان ، وفي نفس الوقت يهضمون كل الحقوق طالما أن القوة في

---

[٢] قام توران شاه أخو صلاح الدين باعطاء اقطاعيات لمماليكه بعد أن نزعها من أبناء كنز الدولة ، وقد كانت أعطيت لهم من قبل الخلافة الفاطمية .

أيديهم . كذلك نجد أن هذه الشروط التي وضعت حفظت لسكان مصر حقهم في أرواحهم وممتلكاتهم ولم يطلب منهم أن يدفعوا سوى دينارين عن كل ذكر بالغ . أما إذا كان الذمي شيخا هرما فانه يعفى من هذه الجزية كما أمر سيدنا عمر بن الخطاب (ض) ، بل ويدفع له من بيت المال ما يقيم أوده .

وتغير الموقف في الدولة العباسية بعد ذلك ، وأصبح العرب في موقف ضعيف يتسم بالمهانة والوهن ، ولهذا وصفه يوسف فضل بالكلمات التالية : ـ

" بعد نهاية الأيوبيين في سنة (٦٥٠هـ / ١٢٥٢م) استولى المماليك على مصر ، وظهرت الغطرسة المملوكية التي أهاجت القبائل العربية وأثارتهم في صعيد مصر ، وشعرت هذه القبائل بأن الحكم في تلك البلاد حكم عسكري أجنبي لا يطاق . وكان المماليك لا يحسون بأي عطف نحو الرعية العربية ، كما أنهم لم يكونوا يتكلمون اللغة العربية ، بل كانوا يحتقرون البدو وسكان الريف . ولم يكن رفض المماليك للعرب يعزى إلى اضطهاد عرقي ، ولكنه كان يعود إلى عدم قبول الحضريين لأهل البادية " . [٣]

ومنذ أن دخل أحمد بن طولون مصر واليا عليها أصبح شغل ولاة مصر الشاغل تأديب القبائل العربية القاطنة في مصر ، كما أصبحت مهمة هذه القبائل الرئيسية الثورة على الأوضاع السياسية السائدة ، وسيطرة المماليك الأتراك الذين كان يجلبهم ولاة مصر منذ أن تولى الخلافة العباسية المعتصم با لله ، ومنذ أن منع أعطيات العرب في كافة أنحاء الخلافة العباسية بما

---

[٣] الدكتور يوسف فضل حسن : العرب والسودان : ص ١٠٠ .

في ذلك مصر . لهذا فانه على مدى العصور التالية سواء أكان ذلك في العهد الفاطمي أم الأيوبي ، كان العرب مستهدفين من الدولة ، وكانوا يمثلون الفئات المضطهدة غير الراضية بما هي فيه من حال . وكان جند المماليك يمثلون العصا المرفوعة لتأديب الثوار العرب . وقد مر بنا كيف أن بدر الجمالي في العهد الفاطمي ضرب إمارة بني ربيعة ومن ساندها من عرب في صعيد مصر ، كما رأينا كيف أن عصر صلاح الدين الأيوبي لم يكن بأكثر اهتماما من سابقه بسائر العرب في الصعيد .

فلما جاء دور المماليك ، واستلموا الحكم في مصر ازدادت شقة الخلاف بين الجانبين – فالمماليك لم ينسوا أن هؤلاء العرب مصدر ثورات وقلق لهم ، والعرب ما زالوا يذكرون أن المماليك ما هم الا غاصبين لحقوقهم في مصر التي فتحوها ونشروا فيها الإسلام . وهكذا فإن الصدع بين المعسكرين كان كبيرا ، وجراح الماضي لم تندمل بعد .

وفي مطلع عصر المماليك (سنة ٦٥١هـ ١٢٥٣م) ظهرت بوادر هذا التيار ، إذ قام زعيم الجعافرة الشريف حصن الدين ثعلب ابن الأمير الكبير نجم الدين علي بن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب مناهضا للمماليك وقال " نحن أصحاب البلاد " ومنع الأجناد من تناول الخراج ، وصرح هو وأصحابه " بأننا أحق من المماليك " .

" واجتمع العرب وهم يومئذ في كثرة من المال والخيل والرجال ، إلى الأمير حصن الدين ثعلب ، وهو بناحية دهروط صربان ، وأتوا من أقصى الصعيد وأطراف بلاد البحيرة والجيزة والفيوم ، وجاءوا إليه كلهم ، فبلغ عدد الفرسان اثني عشر ألف فارس ، وتجاوزت عدة الرجال الإحصاء

لكثرتهم . فجهز إليهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار ، والأمير فارس الدين أقطاي المستعرب في خمسة آلاف فارس ، فساروا إلى ناحية ذروة ... فاقتتل الفريقان ، وانهزم حصن الدين ، واتجه المماليك إلى عرب الغربية والمنوفية من قبيلتي سنبس ولواتة ، وقد تجمعوا بناحية سحا وسنهور ، فأوقعوا بهم ، وسبوا حريمهم ، وقتلوا الرجال . وما زال الترك بحصن الدين حتى قبضوا عليه بحيلة انخدع بها .[٤١]

وهكذا فقد كاد حصن الدين ثعلب بجموعه التي التفت حوله أن يقيم دولة عربية جعفرية لا في صعيد مصر وحده ، ولكن في مناطق أخرى امتدت لتشمل البحيرة والجيزة والفيوم . ولكن لما كان جيش المماليك عبارة عن جيش محترف نظامي حسن التدريب والعتاد والقيادة ، فقد أخفقت هذه الحركة التحررية التي نلمسها في الكلمات التي صدرت عن حصن الدين نفسه .

ولم تكن هذه هي الحركة التحررية الوحيدة التي قام بها العرب لأنه تلت تلك الحركة محاولات أخرى . وما إن فرغ المماليك من حملتهم ضد الشريف حصن الدين الجعفري حتى اجتمعت بعض القبائل العربية في سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م في مواطنها بصعيد مصر ، وقامت بحركة عصيان للدولة. وقد واجه المماليك هذه الحركة بشيء كثير من الشدة والصرامة ، وأعدوا لها جيشا قويا ، كما استفتوا في الأمر دار الإفتاء التي أعلنت فتواها بوجوب القضاء على أولئك العصاة ، وأخفى المماليك حقيقة دوافع إعداد الجيش المزمع إرساله لمحاربة القبائل العربية ، وقيل انه كان يعد ليرسل إلى

---

[٤] عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب .. صفحة ١٢٣ نقلا عن المقريزي : السلوك .

سوريا لمقاتلة المغول ، وبذلك ضللوا العرب وعيونهم التي كانت ترقب الموقف . [٥] وأخذ العرب على حين غرة ، ولم يعدوا العدوة لملاقاة ذلك الجيش المنظم ، ولم يشعروا الا والجيش قد أحاط بهم من كل جانب ، ولم يترك لهم منفذا يفرون منه ، أو ثغرة ينفذون منها .

وكان ذلك (في جمادي الثاني سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٠م ، ووقع الرعب في قلوب العربان حين أطبق عليهم الأمراء ، وأخذوهم من كل جهة فروا إليها ، وأخرجوهم من مخابئهم حتى قتلوا من بجانب النيل إلى قوص ، وجافت الأرض بالقتلى ، واختبأ كثير منهم بمغائر الجبال ، فأوقدت عليهم النيران حتى هلكوا عن آخرهم ، وأسروا منهم نحو ألف وستمائة لهم فلاحات وزروع ، وحصل من أموالهم شئ عظيم ، نحو ثمانين ألف رأس ما بين ضأن وماعز ، وكذلك أربعة آلاف فرس ، واثنين وثلاثين ألف جمل ، وثمانية آلاف رأس من البقر غير ما أرصد في المعاصر من السلاح نحو مائتي وستين حملا ما بين سيوف ورماح ، ومن الأموال على بغال محملة مائتي وثمانين بغلا ، وصار لكثرة ما حصل للأجناد والغلمان والفقراء الذين اتبعوا العسكر يباع الكبش السمين بثلاثة دراهم إلى درهمين ، والماعز بدرهم الرأس ، والجزة الصوف بنصف درهم ، والكساء بخمسة دراهم ، ورطل السمن بربع درهم . ولم يوجد من يشتري الغلال من كثرتها ، وان البلاد طرقت وأهلها آمنون ، وقد كسروا الخراج [٦] وانتهت المعارك بعد أن "

---

[٥] يوسف فضل : العرب والسودان

[٦] المقريزي : السلوك – جزء أول – فصل أول – ص ٩٢١ .

خلت بلاد الصعيد من أهلها بحيث صار الرجل يمشي فلا يجد في طريقه أحدا ، وينزل القرية فلا يرى الا النساء والصبيان " . [٧]

وهكذا عاد الجيش المملوكي إلى القاهرة بكثير من الغنائم والأسلاب . ويضيف المؤرخ بيبرس بأن الجيش استولى على خمسة عشر ألف جواد ، وعشرين ألف جمل ، وعشرة آلاف رأس من الضأن غير الماشية .

كان لهذه الحملة العسكرية أثر كبير على تعداد السكان العرب في المنطقة ، كما أنها كانت مدمرة للحالة الاقتصادية والزراعية والاجتماعية ، وأحس السلطان المملوكي بالدمار الذي حدث فقرر الإفراج عن المأسورين ، وإعادتهم إلى موطنهم لحفظ البلاد التي لابد وان قل ريعها وإيرادات الدولة منها ، وقلت محاصيل الزراعة والأنعام . [٨]

خمدت الثورات العربية بعد ذلك لفترة من الزمن وكأنما كانت القبائل العربية تلتقط أنفاسها لتعاود الكرة مرة أخرى ، وتحاول التحرر من القبضة المملوكية في صعيد مصر وغيرها من أريافها . ويذكر الدكتور عابدين أنه " توالت حركات المقاومة بعد هزيمة حصن الدين ، وكان أغلبها يتركز في منطقة أسيوط ومنفلوط " . وكانت بهما جماعات من جهينة كما كانت هناك جماعات أخرى منها في صحراء عيذاب . ويرجح أنه وان كان المؤرخون العرب لم يذكروا اسم قبيلة جهينة وبلي [٩] بالاسم كمناوئين نشطين

---

[٧] المقريزي : البيان والاعراب – تعليق الدكتور عبد المجيد عابدين – ص ١٢٩ .

[٨] أبو المحاسن : نقلا عن عابدين في البيان – ص ١٢٩ .

[٩] يلاحظ كثرة عدد الابل والضأن والخيول التي استولى عليها المماليك مما يوحي بأنهم استولوا عليها من العربان الضاربين أيضا في أرض البجة حيث اندمجت قبائل بلي وجهينة وربيعة ومضر والكواهلة وغيرهم فيها . كما أن الحديث عن المغاير التي في الجبال قد لا تكون في الصعيد فقط وأرض النوبة ، بل ربما امتدت الى جبال البحر الأحمر أيضا . وهذا يظهر أن القبائل العربية في كل مكان قد ثارت

للحكم المملوكي الا أن وجودهم في أماكن الثورات يرجح اشتراكهم في كل العمليات التحررية . وهذه الفترة هي التي أطلق فيها المؤرخون لفظ العربان على سائر القبائل العربية كما أشار بذلك يوسف فضل [١٠] فقد استوى الجميع في نظرهم ولم يفرقوا بين هذه القبيلة وتلك . وفي هذه الفترة أيضا بدأت العروبة تفقد رونقها وهيبتها التي عرفت بها في التاريخ ، وأضحى العرب من بين الرعية التي ليس لديها ما يشجع السلطان المملوكي على الاهتمام بالنهوض بها وتقدمها . لقد كانوا موجودين في صعيد مصر وفي صحراء عيذاب وأراضي النوبة كأمر واقع ليس أكثر من ذلك .

عمد المماليك أيضا إلى سياسة فرض ضرائب باهظة على هؤلاء العربان ، وفي الواقع فانه منذ أن كان ابن المدبر مسئولا عن ديوان الخراج في مصر فانه كان يضع سياسات عجيبة في سبيل الحصول على إيرادات من العرب خاصة إذا كانوا بحكم رعويتهم بعيدين عن متناول جباة الحكومة ، ولكن ابن المدبر استحدث ضرائب جديدة كضرائب الأمطار والأسماك وغيرها . [١١] وكانت هذه تقع على كاهل هؤلاء الرعاة والصيادين ومن كان مثلهم بعيدا عن أنشطة الإنتاج كالتعدين والزراعة وغيرها . وكان العربي مهما نأى فان جباة الضرائب يسعون وراءه لتجريده من القليل دون أن يجد من وراء ذلك ما يفيده من الدولة . وكان أكثر القائمين بجمع الضرائب

على المماليك ، وأنهم في نهاية الأمر قد فقدوا كثيرا من الرجال وأعدادا عظيمة من أنعامهم وسلاحهم وأموالهم وغلالهم .

[١٠] يؤيد الدكتور عبد المجيد هذا أيضا .

[١١] المقريزي : ص ١٠٣ (بيروت) . كان ابن المدبر مسئولا عن خراج مصر وترجع مسئوليته للخليفة العباسي في العراق مباشرة ، وذلك قبيل أن يتولى ابن طولون كل الأمور بما فيها الخراج .

قدرة على ذلك أحمد بن مدبر . ويتحدث المقريزي عن أحمد بن محمد بن مدبر والي الصلات في مصر فيقول :

" وأول من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد بن مدبر لما ولي خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين ، فانه كان من دهاة الناس ، وشياطين الكتاب ، فابتدع في مصر بدعا صارت مستمرة من بعده لا تنقض فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس ، وقرر على الكلأ الذي ترعاه البهائم مالا سماه المراعي ، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد . [١٢]

ثم يمضي فيقول " وأما المراعي وهو الكلأ المطلق المباح الذي أنبته الله تعالى لرعى دواب بني آدم ، فأول من أدخلها الديوان بمصر أحمد بن مدبر لما ولى الخراج ، وصير لذلك ديوانا وعاملا جلدا يحظر على الناس أن يتبايعوا المراعي أو يشتروها الا من جهته . وأدركنا المراعي ببلاد الصعيد مما يضاف إلى الإقطاعات ، فيأخذ الأمير ممن يرعى دوابه في أرض بلده الكتيح في كل سنة مالا عن كل رأس فيجبى من صاحب الماشية بعدد أنعامه . فلما اختل أمر الصعيد في الحوادث الكائنة منذ سنة ست وثمانمائة تلاشى الأمر في ذلك . " [١٣]

وهكذا نجد أن التعسف في فرض الضرائب قد استمر من القرن الثالث الهجري حتى التاسع الهجري حين وصلت الأمور إلى أسوأ درك وعم الخراب الديار .

---

[١٢] المقريزي – الخطط – ج أول ص ١٠٣ طبع بيروت

[١٣] المقريزي – الخطط – ج أول ص ١٠٧ طبع بيروت .

بانتهاء هذه الثورة الأخيرة وإخمادها ، أطلت أحداث أخرى بعدها بقليل ، فقد ظهرت في أرض الصعيد قبيلة العركيين المنحدرة من جهينة . وكان أن شاركتها في المنطقة قبيلة بني هلال . وحدث خلاف بين القبيلتين أدى إلى نشوب قتال بينهما بين سنة ٧٤٩- ٧٥٤هـ / ١٣٤٨ - ١٣٥٣م . وتعاطف المماليك مع بني هلال ، وقاتلوا العركيين معهم وانتصروا عليهم . ولكن قتل من أمراء المماليك وجنودهم عدد كبير مما أجج الحزازات بينهم وبين العركيين . ورجع الجيش المملوكي إلى القاهرة بخسائر في الأرواح مما جعل المماليك بعدها يعملون على الأخذ بالثأر من العرب .كذلك فان العركيين انتهزوا فرصة خلو الميدان من جيش المماليك فالتفوا حول زعيمهم محمد بن واصل العركي ، وكان هذا رجلا فارع الطول حتى انحنت قامته فلقب لذلك بالأحدب . وقاد الأحدب رجاله من العركيين وأنزل ببني هلال ضربة قوية مما اضطر بعضهم إلى الفرار من أمام العركيين ، ولعلهم كما ذكر الدكتور يوسف انحدروا من منازلهم بصعيد مصر إلى الأراضي السودانية . ووالى أنصار الأحدب هجماتهم على ديار بني هلال ، وأخذوا كثيرا من الغنائم والأموال غير عابئين بما سيقوم به المماليك من انتقام . وبقيت بعض بطون الهلالية في صعيد مصر الأعلى ومن هذه البطون بنو رفاعة . [١٤]

ازداد نفوذ الأحدب فى المنطقة لغياب السلطة المملوكية ، وكثر أتباعه ، وتوافدت عليه جموع غفيرة من العرب . وكان كريما سمح العطاء لا يتوانى عن تقديم العون لمن يلجأ إليه . والتف حوله الناس وأطاعوه حتى زادت مهابته فى عيون عمال الحكومة. ولم يكن جباة المماليك للضرائب

---

[١٤] المقريزي : البيان والاعراب ص ٢٨ لعبد المجيد عابدين

بقادرين على أن يجمعوا أموال الدولة من الناس دون أن يأذن لهم بذلك وهكذا أصبح دولة داخل الدولة .ويضيف الدكتور يوسف على هذا القول المأخوذ منه انه ظهر زعماء آخرون مثل السوايدى فى منطقة البهنا وقد حذا حذو الأحدب فى فرض نفوذه على أواسط مصر .

وشعر المماليك بخطورة الأحدب . وقرروا العمل على إضعاف قوته قبل أن يستفحل الأمر .

" وبعد شهر من المشاورات والاستعدادات أرسل المماليك جيشا كبيرا تحت قيادة سيف الدين شيخو عبر دروب مختلفة نحو مصر العليا وذلك فى ذى القعدة سنة ٧٢٤ هـ / ديسمبر ١٣٢٣ م . وقبل أن توجه الحملة إلى هدفها سمع العرب بالجيش المملوكى وبما يهدف إليه . فعمهم الخوف ورأوا أن يتخذوا إجراءات احتياطيه . فرأى بعضهم أن يهاجر إلى النوبة بعائلاتهم. ولجأ آخرون إلى أماكن مختلفة يختبئون بها. بينما حاولت قلة منهم الذهاب إلى الحج .ولكن لسوء حظهم عثر عليهم أعداؤهم ، فحملوهم إلى القاهرة حيث قتلوا عن آخرهم . وقد قام الجنود المماليك بحملة منتظمه منذ خروجهم من الجيزه للبحث عن الثوار ، وتمكنوا من القبض على كل من كان متهما ، كما قاموا بقتل الكثيرين ، وصادروا كافة الجياد التى عثروا عليها وكذلك الأسلحة ."[١٥] و استمرت حركة الاحدب المناهضة للمماليك فترة تزيد عن الخمس سنوات بين سنة ٧٤٩ الى سنة ٧٥٤هـ . وقد انضم إليه في هذه الأثناء جماعات من القبائل العربية التي كانت تسكن في منفلوط والمراغة ، كما انضم إليه بنو كلب وبنو جهينة بالإضافة إلى عشيرته من العركيين . وأصبح حلفا عربيا متضامنا بلغ تعداد فرسانه ما يزيد عن العشرة

---

[١٥] يوسف فضل مؤجم من كتابه العرب والسودان ص ١٠٤

آلاف فارس ، كما كان معه من المشاة ما يفوق هذا العـدد . وأخـذت قوتـه في الازدياد حتى بلغ به أن " نادى بالسلطة لنفسه ، وجلس في جتر ، وجعـل خلفه المسند ، وأجلس العرب حوله ، ومد السماط بين يديه ، وأنفذ أمره في الفلاحين " . [١٦] فلما استفحل أمـره عقـد أمـراء المماليك المشـورة في عـام ٧٥٤هـ في أمر عرب الصعيد ، وقرروا " تجريد العسكر لهم . فحشد محمـد أبن واصل الأحدب شيخ عرك جموعه وصمـم علـى لقـاء الأمـراء ، وحلـف أصحابـه علـى ذلـك ... وجمـع مواشـي أصحابـه كلهـم وأموالهـم وغلالهـم وحريمهم وأولادهم . وأقام ينتظر قدوم العسكر " .

وكان المماليك قد عقدوا العزم على إنهاء أمر العرب سواء من كان ضدهم أو كان حليفا لهم . ولذلك فقد دبـروا المكيـدة لحلفـائهم بـني هـلال بالمثل ودعوهم للانضمام إليهم لتأديب أعدائهم العركيين . وفرح بنـو هـلال بتلك الفرصة التي سنحت لهـم للتخلـص مـن العركيـين ، (فـانخدعوا بذلـك وفرحوا به وركبوا بأسلحتهم ، وقدموا في أربعمائـة فـارس ، فمـا هـو الا أن وصلوا إلى الأمير شيخو " قائد المـمـاليك " حتـى أمـر بأسـلحتهم وخيولهـم ، فأخذت بأسرها ، ووضع فيهم السيف ، فأفناهم جميعا) . [١٧]

أما هذه الخدعة فهي إن دلـت علـى شئ فإنمـا تـدل علـى سـوء نيـة المماليك وعزمهم على التخلص من العرب كافـة مـن كـان منهـم حليفـا أو ثائرا . وقد أكد هذا ما قاموا به فيما بعد .

---

[١٦] عابدين : البيان – " الجتر مفرد جتور من شعار السلطنة وهو مظلة في قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب ، تحمل على رأس السلطان في العيدين ، وهي من بقايا الدولة الفاطمية " .

[١٧] عبد المجيد عابدين – المقريزي : السلوك : انظر البيان ص ٣٠ ١/ السلوك ٩١١

وبينما كان جيش المماليك النظامي يسير إلى ملاقاة الأحدب كان هذا قد تراجع إلى أسوان حيث كانت قاعدته الأساسية ، وهو في جموعه تلك التي أقسمت على الوقوف معه ضد المماليك . " ولكن عندما وصل جيش المماليك الرئيسي وأصبح على مرأى من رجال الأحدب ، فر كل المقاتلين العرب من وجه أعدائهم ، وتشتتوا في البلاد خوفا من الجيش تاركين وراءهم ذراريهم وممتلكاتهم . وتعقب المماليك هؤلاء الفارين ، وأعملوا فيهم السيف دون تمييز " . [١٨] وطاردوهم في كل مكان حتى بلغ الفارون ما وراء الحدود السودانية في البراري ، وهم لا يلوون على شئ ، واستمرت المطاردة لمدة سبعة أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج ، ثم رجع الأمراء والسلطان إلى الديار المصرية . [١٩]

ولا تعرف بالضبط أراضي الزنج التي وصل إليها المماليك ، فهي ليست بلاد الصومال وليست أعالي النيل لأن هذه المسافات أبعد من أن تقطعها وسائل النقل الحيوانية في ذلك العدد من الأيام ، وربما لم يكن ابن اياس دقيقا في عدد أيامه إذ من المؤكد أنهم قد دخلوا الأراضي السودانية ورجعوا منها .

ويضيف الدكتور يوسف بأن الجيش المملوكي لم يعد إلى عاصمة مصر الا بعد أن قضى تماما على العرب ولم يبق أحد من الأعراب في البلاد . وربما اعتمد في حديثه هذا على ما جاء في حديث المقريزي الذي لخص هذه الأحداث بقوله انه " لم يبق بدوي بصعيد مصر " . [٢٠] ويلاحظ أن المقريزي

---

[١٨] يوسف فضل –

[١٩] ابن اياس ١/ ٢٠٠ – عابدين البيان ١٣١ .

[٢٠] المقريزي : السلوك ٢–٣ / ٩١٣ : عابدين : البيان ص ١٣١

ذكر " البدو " بلفظها في حديثه على أنهم هم الذين أخرجوا من الصعيد ، أما العرب المستقرون في الزراعة والمدن فلا يبدو أنه ناهم كثير من الضرر .

حين يذهب الجيش لحرب كهذه ويجد أن الثائرين قد جمعوا كل ما لديهم من حطام الدنيا في مكان واحد فانه سيعمل على أخذ هذا المال والمتاع وكل ما يعثر عليه ، ووصف هذه الحالة يوسف فضل أيضا بقوله " وكما هو متوقع فقد عاد المماليك من حربهم بكميات ضخمة من الغنائم والأسلاب . أما الأحدب فقد فر من وجه أعدائه واختفى عنهم حتى صدر عفو عنه في ربيع الأول سنة ٧٥٦هـ (يناير ١٣٥٥م) أي بعد عامين من انتهاء المعارك . ولم يحصل على هذا العفو الا بعد أن قطع على نفسه عهدا ، وربما أيضا على مناصريه بأنه لن يركب فرسا ، ولن يحمل سلاحا بعد الآن ، وأنه سوف يفلح الأرض . "

واضطر الأحدب تحت وطأة القوة المملوكية أن يترك الملك لهم ومن معه من عرب ، وأن يفلح الأرض بعد أن واجهته جموع لا قبل له بها . وحذت حذوه بقايا القبائل العربية التي سبق لها أن آزرته ، وكان ذلك في سنة ٧٥٦هـ الموافق ١٣٥٥م .

ظلت مع ذلك بقية من هذا الحلف العركي في صعيد مصر الأعلى بعد كل هذه الأحداث وعرفوا باسم عرب ابن الأحدب . وقد ظهروا بعد ذلك في أحداث وقعت مع هوارة في سنة ٧٩١ مما يعني أن بعض العركيين من أنصار الأحدب ظلوا في مصر وأنه ربما كانت جماعات كبيرة منهم هي التي رحلت إلى الأراضي السودانية بعد هذه المعارك التي خاضوها فرارا من المماليك . [٢١]

---

[٢١] عابدين : البيان والاعراب للمقريزي .

بعد هذه الحقبة ٦٥١-٧٥٦هـ (١٢٥٣- ١٣٥٥ م) استمرت هجرات العرب الاضطرارية من مصر إلى الأراضي السودانية ، وكان على رأس النازحين عرب الخلف العركي وفيهم أيضا بنو هلال ، وتغلب عليهم جموع من جهينة التي كانت تضم الكثيرين من بطونها من أمثال بني عرك . ولم يتوقف ضغط المماليك واضطهادهم للعرب بعد هذه الحوادث إذ أخذوا يمشطون صعيد مصر الأعلى وكل بقعة لجأ إليها هؤلاء الأعراب . وابتكروا طريقة للتعرف عليهم بها ، فكانوا يطلبون من العربي أن ينطق كلمة دقيق ، فان قلب القاف همزة كما يفعل أبناء القاهرة فقال " دئيئ " خلوا سبيله . وإن غلبت عليه البداوة فنطق القاف كما ينطقها العربي القح فانه سيطرد من مصر إلى الأراضي السودانية . [٢٢]

يلاحظ أن هذه القبائل العربية كانت تفر نحو صحراء البجة في شمال شرقي السودان مبتعدة بذلك بقدر الإمكان عن متناول المماليك . فكانوا يلوذون بالصحراء ، وان كان بعضهم قد لجأ إلى بلاد النوبة ولكنهم عموما كانوا يرون أن بلاد النوبة ليست بمنأى عن أيدي المماليك القوية . وكم من مرة غزا ولاة مصر في مختلف العصور تلك المملكة بحثا عن ثائر أو منشق أو ملك لم يذعن لسياستهم . لهذا فقد عبرت الأكثرية إلى مناطق قبائل الأمارار والبشاريين الحالية من قبائل البجة ، وذهبت قلة قليلة إلى أراضي النوبة على النيل ممن لم يجدوا الفرصة الكافية للوصول إلى صحراء البجة .

وطوال هذه الفترة ٦٥١- ٧٥٦هـ التي كان يضغط فيها المماليك ضغطا متواصلا على العرب القاطنين في براري مصر عامة وفي الصعيد بوجه خاص ، كانت هناك الحملات التي ترسل إلى بلاد النوبة والى

---

[٢٢] محمد صالح ضرار : تاريخ السودان – البحر الأحمر – صفحة ٤١ – مكتبة دار الحياة –بيروت .

بني كنز الدولة في أسوان وما جاورها ، ولم تسلم تلك المناطق من أيدي المماليك التي كانت تقبض على زمام الأمور في القاهرة وتفرض نفوذها على سائر أنحاء مصر بل وما وراء الحدود المصرية الجنوبية .